الوقف الصحي في صدر الإسلام، ومساهمته في الحضارة الإسلامية: دراسة تأصيلية

الدكتور سعد الصقلي الحسيني

الدكتوراه طب الأسنان من كلية طب الأسنان بالرباط سنة 1992م

دبلوم جامعي لأمراض وجراحة الفم من كلية الطب بفاس جامعة سيدي محمد بن عبد الله سنة 2011

أول طبيب أسنان قدم أطروحة باللغة العربية بكلية طب الأسنان الرباط المغرب

نائب رئيس فرع فاس للجمعية المغربية للوقاية من أمراض الفم و الأسنان.

تقديم

يتميز أساسا الوقف الصحي الإسلامي في كل ما له علاقة بصحة الإنسان وحمايته من الضعف والمرض و الوباء، والعناية بالنظافة والتغذية والانحرافات العضوية والنفسية، وغيرها من توفير المأوى وسبل العلاج أو الحجر، وكل ذلك حفظا لمقاصد أسمى أهمها حفظ الدين، والعقل والنفس والمال.

اهتمت الأوقاف الخيرية برعاية صحة المسلم وتنشئته كإنسان قادر بدنيا وعقليا، ولقد حثنا النبي على الاعتناء بالجسم، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري (إنَّ لجَسَدَكَ عَلَيْكَ حَقًّا).

يعدُّ الوقف الإسلامي مفخرة من مفاخر الإسلام، أسسه ووضع لبناته الأولى سيدنا محمد ﷺ، امتثالا لقول الله عز وجل ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ آل عمران 92. وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ(إِذَا مَاتَ ابنُ آدم انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ.) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وقال أبو الحامد الغزالي: وليست الصدقة الجارية إلا الوقف.

الفصل الأول، تعريف الوقف، الوقف الصحي، أنواعه أحكامه وشروطه.

تعريف الوقف، الوقف الصحي

الوقف لغة: الحبس والمنع، وهو مصدر وقف والجمع أوقاف، وقفت الدار وقفا حبستها في سبيل الله. ومعنى الوقف في اللغة: الحبس، تقول: وقفت الدار وقفاً أي حبستها في سبيل الله، ومنه قول الله تعالى ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ الصافات 24 أي: احبسوهم. ثم اشتهر إطلاق الوقف على الشيء الموقوف نفسه من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، تقول: هذا البيت وقف أي: موقوف، ولهذا يجمع على أوقاف، وللوقف ألفاظ أخرى مرادفه له وتدل عليه منها:الحبس ،الصدقة, التسبيل و التأبيد[1].

وملخص تعريف الوقف عند الفقهاء يدور حول التصرف في العين وما تدره من دخل مع بقاء أصلها، وجعل منفعتها لجهة من جهات البر المختلفة، لتخرج من ملك صاحبها بجعلها مبذولة على وجه القربة لله سبحانه وتعالى[2].

الوقف الصحي

لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع الوقف، غير أن صرفه قاصر على الجانب الصحي، الوقف الصحي هو كل ما تقوم الأوقاف بتوفيره من خدمات صحية ونفسية، وكل ما يوفر سبل العيش الكريم للإنسان ولذلك عرف من الناحية التركيبية بكونه: «تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة على مصرف صحي مباح»[3].

الوقف الصحي كل ماله علاقة بصحة الإنسان كالتغذية والنظافة والانحرافات العضوية والنفسية وبعض طرق العلاج، وكافة النواحي البيئية والاجتماعية والشخصية، سواء كانت خدمات طبية، أو رعاية طفولة، وقد تكون أيضا إشرافا على ملاجئ مختصة للمعوزين وغيرها.

تعرف منظمة الصحة العالمية الوقف الصحي: استدرار الموارد المالية وتخصيصها واستخدامها في إطار النُظم الصحية.

أنواع الوقف الصحي وأحكامه

ساهم الوقف في توفير الحياة الكريمة للفقراء والمساكين والمحتاجين والمرضى عبر التاريخ، فعمل على تلبية احتياجاتهم الأساسية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن،

وعلاج، فكان هناك الحبس على الأراضي الزراعية، والحبس على الزوايا والدور والحبس على صهاريج المياه، والحبس على الرحى(الطواحين)، والحبس على أراضي وتخصيصها لدفن الموتى، والحبس على البيمارستانات[4].

ولم يكن الوقف مقصوراً على النفس البشرية فقط، بل خصصت بعض الأوقاف لرعاية الحيوانات والطيور[5].

لقد استطاعت مؤسسة الوقف أن تسهم في تنمية العديد من القطاعات التي تخدم فئات المجتمع المختلفة، ومن المؤسسات الوقفية نذكر؛ المدارس والمكتبات والبيمارستانات والتكايا (جمع التَّكِيَّة: مكان يعدّ لإيواء فقراء المسافرين) والزوايا والأسبلة والخانات والفنادق للمسافرين والمنقطعين[6].

أيضا أسهم الوقف في تأمين وظائف للعديد من الأفراد، وبالتالي أمن احتياجات العديد من الأسر و الأيتام كما في حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما.

الوقف على المكتبات والكتب:

شاع بين المسلمين وقف الكتب والمكتبات سواء أكان هذا من الخلفاء والسلاطين أم من العلماء وقد انتشر الوقف على الكتب والمكتبات في أرجاء العالم الإسلامي منذ العصور الإسلامية المبكرة، وكان له الأثر الأوفى في تعدد المكتبات وتنوع مناهلها وبالتالي تركت آثارها الواضحة في الازدهار الثقافي والعلمي الذي شهده العالم الإسلامي على مدى قرون طويلة[7].

الوقف على البيمارستانات ومدارس الطب

لم تقتصر عناية الحكام المسلمين ببناء البيمارستانات، والإنفاق عليها وتوفير العلاج المجاني لكل فئات المجتمع وتخصيص أوقاف صحية خالصة ومنتظمة ضخمة فحسب، بل شملت عنايتهم بها تنظيم مهنة الطب والإنفاق المستدام على تطويرها، وتطوير أساليب عملها، وخصصوا لها أوقافا لترميمها وإطعام المرضى وتوفير الأدوية لهم وصرف رواتب الأطباء، فكان البيمارستان مكانا لعلاج وإيواء المرضى والغرباء، وأيضا مركزا للتجارب الصيدلية والطبية.

الفصل الثاني، مشروعية الوقف الصحي من الكتاب و السنة.

الأدلة من كتاب الله سبحانه وتعالى

آيات تحث على مشروعية الإنفاق وفعل الخير والوقف من الأعمال الخيرية: فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ال عمران 92. وقال سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ البقرة 267.

الأدلة من السنة

وفي الحَديثِ يَروي مُصعَبُ بنُ سَعدٍ أنَّ سَعدَ بنَ أبي وَقَّاصٍ رَضيَ اللهُ عنه رَأى أنَّ له فَضلًا على مَن دُونَه مِنَ الضُّعَفاءِ؛ لِقُوَّتِه وشَجاعَتِه في الغَزَواتِ، فذَكَّرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بفَضلِ مَن هو دُونَه مِنَ الضُّعَفاءِ عليه،حيث قال ﷺ (ابْغُوني ضعفاءكم، فإنَّما تُرزقونَ وتُنصرونَ بضعفائِكُمْ).

وأنَّ اللهَ يَرزُقُهم ويَنصُرُهم بسَبَبِ دُعائِهم، فالعناية بالمرضى والضعفة، وهم أضعف أفراد المجتمع، ولو كان المريض غنياً فإنه يضعف أمام المرض وشدته، كما أن هذا يدعونا إلى استحضار قوله ﷺ (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس عنه كربة من كرب يوم القيامة والله في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه) أخرجه الترمذي.

مجالات الوقف التي تحقق مقاصد الشريعة الإسلامية؛ غايات ومقاصد الوقف الصحي .

لا يستطيع الإنسان العيش في المجتمع بكرامة واستقرار وطمأنينة وأمن وأمان إلا إذا تحققت حماية الضرورات الخمس التي أقرتها الشريعة الإسلامية السمحاء الغراء وهي. الدين، النفس، العقل، النسل، والمال، وصحة الإنسان مرتبطة ارتباطا مباشراً بثلاثٍ من هذه الضرورات، وهي النفس، العقل، والنسل.

الوقف وحفظ النفس: لا يكون حفظ النفس إلا بحفظ الصحة، ولذا كان تحصيل الطب واستعمال العقل الإنساني للنبوغ فيه فرض كفاية على المسلمين، كما كان توفير المستشفيات والإنفاق عليها أمراً ضرورياً لتحقيق الأمن الصحي[9].

وحفظ النفس يكون بتحصينها من الجوع والعطش والأمراض الفتاكة. فالشريعة الإسلامية تعلي من شأن إحياء النفس البشرية، قال تعالى: ﴿أنه مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ .المائدة 32.

الوقف وحفظ العقل: لقد اهتم الإسلام بالعقل اهتماماً كبيراً، وأعلى من قيمته ومنزلته، وقد جاءت الشريعة الإسلامية بأحكام وافيه تحقق حفظ العقل من أن يدخل عليه خلل، لأن دخول الخلل على العقل مؤدٍّ إلى فساد عظيم من عدم انضباط التصرف[10].

الوقف وحفظ النسل: من المقاصد المهمة في الشريعة حفظ النسل، فحفظه من الركائز الأساسية لعمارة الأرض، وبه تكمن قوة الأمة، لما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في رواية عائشة أم المؤمنين (النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي، فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي، وَتَزَوَّجُوا، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ، وَمَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ فَلْيَنْكِحْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَعَلَيْهِ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ): أخرجه ابن ماجه.

فالإسلام عني بحفظ النسل وحمايتها، وحث على ما يحصل به تكثيره واستمراره، فكانت هناك أوقاف على الذرية، واليتامى وأوقاف على الأرامل والمطلقات، وأوقاف لتزويج الفقيرات[11].

الفصل الثالث نماذج من الوقف الصحي في مدرسة الرسول، أول مستشفى ميداني في عهد الرسول (خيمة رُفيدة الأسلمية)

حينما أهدى المقوقس ملك مصر طبيباً للرسول محمد ﷺ أمر هذا الطبيب المصري بمعالجة الناس جميعهم دون استثناء وبالمجان، ولم يثبت أن أحدا دفع أجرة مقابل المعالجة الصحية أو

قيمة الأدوية اللازمة[12].

استقدم النبي ﷺ الطبيب العربي الحارث بن كلدة لتطبيب الناس. كما أسس الرسول ﷺ مسجد قباء حين قدم مهاجرا إلى المدينة قبل أن يدخلها، ثم بعد ذلك المسجد النبوي الشريف في السنة الأولى للهجرة عند مبرك ناقته، ولأهمية المسجد وقدرته على بناء مجتمع سليم ومتكامل، فإنّ أوّل ما فعله الرسول حينما وصل إلى المدينة المنورة هو بناء مسجد، لأنها راحة المؤمنين النفسية واطمئنان يومي عظيم فيه تطمئن قلوبهم وترتاح نفوسهم، فمن خلال الإقبال على أداء الصلوات الخمس يجد المؤمن ضالته وأمنه الروحي الكامل.

بالإضافة إلى ذلك، قام الرسول بوقف الحوائط السبعة بالمدينة (البساتين) التي قال جابر: لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف. تصدقت فاطمة بنت رسول الله بمالها على بني هاشم وبني المطلب، و أن عليا كرم الله وجهه تصدق عليهم وأدخل معهم غيرهم.

خيمة رُفَيْدَةُ الأسلمية

كان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصاب سعد السهم بالخندق: (اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب)، وفقا لما جاء في كتاب (السيرة النبوية) لابن هشام. كما لم يكن عمل رفيدة مقصورًا على الحروب والغزوات فقط، بل كانت تداوي مرضى المدينة، و تعتبر رفيدة بمثابة أول ممرضة تقوم بعلاج المرضى- لمداواتهم حتى لا يفقدوا الكثير من الدماء.

يمكن اعتبار خيمة رُفَيْدَةُ الأسلمية أول مستشفى متنقل حربي في الإسلام، وكان مجهزا بما يحتاجه المرضى من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة. عرفت رُفيدة الأسلمية بصفة الممرضة من خلال ممارساتها الطبية، في أوقات الحروب والسلم[13]، ويُعتقد أنها دربت نساء أخريات، منهن أمهات المؤمنين مثل عائشة بنت أبي بكر لكي يصبحن مداويات للجرحى.

خاتمة

يعتبر علم الطب من العلوم التي اهتم بها المسلمون، ومن النصوص النبوية في تعلم الطب قوله ﷺ (لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله عزّ وجل)، رواه مسلم، و نوه الامام الشافعي بأهمية تدريس علم الطب، حيث يذكر مقولته المشهورة" العلم علمان: علم فقه الأديان، وعلم طب الأبدان[14].

يعتبر الوقف الصحي من أهم المؤسسات الخيرية في العالم الإسلامي إذ كان له دور كبير في تطوير الحياة الاجتماعية، والمحافظة على النفس البشرية من خلال ما قدمه من دعم للرعاية الصحية. لقد نمى الوقف وترعرع وأخذ بعده ومشروعيته وتنظيمه في مدرسة الرسول وآل بيته أولا، ثم سارع إليه الصحابة والتابعين والخلفاء ثانيا تَأَسِّيًا بالرسول واجتهادا في تنظيمه وإحكامه.

لقد عرف المسلمون أول مستوصف في الإسلام في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عندما أمر بإقامته أثناء غزوة الخندق في (5 هـ - 627 م) على هيئة خيمة (خيمة رُفَيْدَةُ الأسلمية) في مسجد المدينة لعلاج الجرحى والمصابين وتضميد جراحهم، فكانت بمثابة أول مستشفى حربي متنقل.

إن الوقف الصحي نظام إسلامي أصيل يستمد منهجيته من القرآن والسنة النبوية، ويهدف إلى تلبية احتياجات الأفراد والمجتمعات صحيا، فقد ضربت أمة الاسلام أرقى الأمثلة على قدرتها في تدبير المؤسسات الوقفية الاجتماعية لوجوه البر.

يعتبر مكوناً أساسياً للحضارة الإسلامية الشامخة، وهو يمثل بالتالي نموذجا متجددا لمقاصد الشريعة الإسلامية السمحة القائمة على قيم العدل الإنساني للبشرية جمعاء، ومن هنا فلا غرابة أن يسارع الناس أفراداً وشعوباً للدخول في هذا الدين الذي يُوجد مثل هذا المجتمع المتلاحم بين أفراده، دين قيم متماسك عظيم حمل رسالته السامية سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام , مصداقا لقوله تعالى في سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

المراجع

1. ابن منظور، اللسان.
2. إبراهيم عبد الحليم عباده , الوقف على البحث العلمي وآثاره الاقتصادية والاجتماعية , كليّة الشريعة والدراسات الإسلاميّة/ جامعة آل البيت- الأردن 2013.
3. أحكام الوقف الصحي، يزيد بن حمد البليهي.
4. .حسن الوراكلي، الأحباس العلمية عند المغاربة والأندلسيين، جامعة الشارقةمايو 2011م.
5. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، القاهرة، 1974م.
6. شكيب عبد الفتاح، بيمارستان سيدي فرج بفاس، المجلة الصحية المغربية، عدد4، ابريل 2013م.
7. يحيى محمود، الوقف وبنية المكتبة العربية – استبطان للموروث الثقافي –، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية،1988م، ص33.
8. د. عكرمة صبري , الرعاية الصحية في الإسلام.
9. أوقاف الرعاية الصحية في المجتمع الإسلامي، أحمد عوف محمد عبدالرحمن.
10. الجرجاني، علي بن محمد، كتاب التعريفات، بيروت، 1983م.
11. الشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة آل سليمان، ج2، 1997م.
12. عكرمة صبري 2010الرعاية الصحية في الإسلام.
13. الفوزان، محمد براك عبد المحسن 2012م عمل المرأة في المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى. الرياض.
14. البيهقي، مناقب الشافعي. تحقيق: أحمد صقر 1970.